

متى آخر مرة دَمَعْتُ عَيْنَاكَ خُشِيَّةً وَخُوْفًا مَّنَ اللَّهُ ؟

يتتسارع وقع خطى الأيام، وتتسابق لحظات المساء، نحو ساعات يشبه بعضها بعضاً، وتشتد غفلة الإنسان مع متطلبات شؤونه الحياتية، فلا يفتق إلا بعد ما طويت مراحل عمره مهمة، فيندم عندئذ ندماً كبيراً، ويتمنى أن لو أيقظه موقف أو صرخ في وجهه ناصحاً.

وهذا في الواقع يحصل لكل أحد، فلا أحد ينجو من الغفلة، ولا أحد يهرب من التأثير بدوامة الحياة، ولكن ثمة لحظات صدق تائبة، ونوبات خشوع صادقة تتلمس شغاف القلب المنيب إلى ربِّه، يحاسب فيها نفسه، ويجدد فيها العهد، وعندها تثور ثائرة مشاعره الصادقة التائبة، وتغزور عيناه بدموع إيمان، فيكون بكاؤه عندئذ أشبه ما يكون بغيث السماء الذي يرسله الله سبحانه على جدباء الأرض فيحييها وينبت فيها الحياة من جديد.

القرآن والسنة

قال الله تعالى: "وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا" الإسراء .109:

وعن أبي أمامة رضي الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ليس شيء أحب إلى الله تعالى من قطرتين وأثريين: قطرة دموع من خشية الله وقطرة تهرق في سبيل الله، وأما الأثران فأثر في سبيل الله وأثر في فريضة من فرائض الله تعالى" أخرجه الترمذى.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يلتج النار رجل بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللbin في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم" أخرجه الترمذى.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سبعة يظلمهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله ... ، وذكر منهم "ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، متفق عليه.

سمة الصالحين

عن العرياض بن سارية قال: "وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعدة سالت منها العيون ووجلت منها القلوب ...". أخرجه أحمد والترمذى.

وكان الضحاك بن مزاحم إذا أمسى بكى فيقال له ما يبكيك ؟ فيقول : لا أدرى ماذا صعد اليوم من عملي ..!

وقال ثابت البناي: كنا نتبع الجنائزة فما نرى إلا متقنعاً باكياناً أو متقنعاً متفكراً.

وقال كعب الأحبار: لأن أبكي من خشية الله فتسيل دموعي على وجنتي أحب إلى من أن أتصدق بوزني ذهباً.

وقال قتادة: كان العلاء بن زياد إذا أراد أن يقرأ القرآن ليعظ الناس بكى وإذا أوصى أجهش بالبكاء.

وقال الذهبي: كان ابن المنكدر إذا بكى مسح وجهه ولحيته من دموعه ويقول: بلغني أن النار لا تأكل موضعها مسته الدموع.

وعن يحيى بن بكر، قال: سألت الحسن بن صالح أن يصف لنا غسل الميت بما قدرت عليه من البكاء.

وعن محمد بن المبارك، قال: كان سعيد بن عبد العزيز إذا فاتته صلاة الجمعة بكى.

وقال معاوية بن قرة: من يدلني على رجل بكاء بالليل بسام بالنهار؟

وقال بكر بن عبد الله المزنبي: "من مثلك يا ابن آدم خلي بينك وبين المحراب، تدخل منه إذا شئت وتناجي ربِّك، ليس بينك وبينه حجاب ولا ترجمان، إنما طيب المؤمن الماء المالع هذه الدموع فأين من يتطيبون بها؟".

مثيرات البكاء

-1- الخلوة الصالحة في أوقات إجابة الدعاء: فالخلوة الصالحة هي خليلة الصالحين والعباد وكل قلب يفتقر إلى خلوة، وأنا هنا أنتتها بالصالحة وهي الخلوة التي يقصدها المرء بنية التبعد لله والخلوص لله ، قال الله سبحانه: "وَإِذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَّئِلْ إِلَيْهِ تَبَّئِلًا" .. وهذه الخلوة الصالحة يكون فيها التدبر في شأن الإنسان وحاله مع ربِّه، ويكون

فيها محاسبة المرء لنفسه، ويكون فيها استدعاء تاريخ حياة كل واحد مع نفسه فقط، وتكون فيها المصارحة والمكاشفة بين كل امرئ وقلبه، فيعرف مقامه وتقصيره وكم هو مذنب مقصر خطاء.. وعندما يسارع إلى الاستغفار والبكاء من خشته سبحانه.

-الإنصات والتذكرة والموعظة: فكم من كلمة طيبة كانت سبباً في تغيير حياة إنسان من الغفلة إلى الاستقامة، وقد حذر العلماء من إغفال التذكرة وعدم التأثر بها، فقال إبراهيم بن أدهم: علامة سواد القلوب ثلاث.. ذكر منها: ألا يجد المرء في التذكرة مالما!!

وكان الحسن إذا سمع القرآن قال: والله لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا حزن وذبل ولا نصب ولا ذاب ولا تعب، وقال ذر لأبيه عمر بن ذر الهمданى: ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد فإذا تكلمت أنت يا أبت سمعت البكاء من هننا وهننا؟ فقال: يا ولدي ليست النائحة الشكلى كالنائحة المستأجرة.

-محاسبة الجوارح ومخاطبتها: فعن أحمد بن إبراهيم قال: نظر يونس بن عبد إلى قدميه عند موته فبكى وقال: قدماي لم تغبرا في سبيل الله، فهذه إذن حسرات الصالحين، حسرة يوم يذكر طاعة لم يتمها، وحسرة يوم يذكر خيرا لم يشارك فيه، وحسرة يوم يمر عليه وقت لا يذكر الله تعالى فيه،

والحق إن في الحديث إلى الجوارح لاسترجاع لواقع المرء الحقيقي الذي غاب عنه، فينظر إلى كل جارحة من جوارحه ويخاطبها: كم من ذنب شاركت فيه؟ وكم من طاعة قصرت عنها؟ وكم من توبة تمنعت عنها؟ وكم من استغفار غفلت عنه؟.. ويدرك قول الله تعالى: {حتى إذا ما جاءوها شهدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجَلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَقَالُوا لِجَلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ}... الآيات "فصلت".

البكاء والإخلاص

تساؤل يثير كثيراً حول الموقف من البكاء أمام الناس وفي حضرتهم رغم ما يمكن أن يكتتف هذا من التماس ببعض شبكات المراة للناس وتصوير النفس بالخشوع والتقوى، فكثير من الناس يمتنعون عن ذلك البكاء ولا يبدونه مهما كانت الأحوال مخافة الاتهام بالرباء أو مخافة مداخلة النفس العجب، وعلى جانب آخر يرى البعض أن البكاء في المجالس وفي المواقع شيء طبيعي للأصحاب القلوب الرقيقة لا يمكن إنكاره أو اتهام صاحبه بسوء نية، فما هو الموقف الصائب إذن؟.

الناظر إلى أحوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن تابعهم ونهج نهجهم من علماء الأمة ليرى بوضوح أن البكاء كان سمة مميزة لهم - كما سبق أن بينا فيما سبق من آثار - بل أكثر من ذلك.. إن بعضهم كان ربما يظل طوال درس العلم الذي يلقيه يظل يبكي حتى ينتهي،

فيري الإمام الذهبي عن أبي هارون قال: كان عون يحدثنا ولحيته ترثش بالدموع،
وقال جعفر بن سليمان: كنت إذا رأيت وجه محمد بن واسع حسبت أنه وجه ثكلى.. إلى غير ذلك من الآثار المتکاثرة.
ولكن هناك أيضاً من الآثار ما حضر على إخفاء ذلك البكاء وجعله في الخلوة ومنفرداً فقط،
فعن محمد بن زيد قال: "رأيت أباً أماماً أتى على رجل في المسجد وهو ساجد يبكي في سجوده فقال له: أنت أنت لو كان هذا في بيتك"،

وقال سفيان بن عيينة: "اكتم حساناتك كما تكتم سيناتك"،

بل نقل الذهبي عن عمران بن خالد قال سمعت محمد بن واسع يقول: إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم به.. إلى غير ذلك من الآثار.

وخلاله القول في ذلك أن يعلم الإنسان نفسه البكاء من خشية الله وعند سماع الموعظة والذكر والتذكرة وعند محاسبته لنفسه أو غير ذلك، والأصل في البكاء أن يكون في الوحدة ومنفرداً وفي الخلوات، ولكن إذا كان المرء بين الناس وغلبه البكاء فلا شيء في ذلك أبداً إذا أطمان من نفسه الصدق والإخلاص بل إن ذلك كان حال الصالحين.

نصائح تربوية

-1- تهيئة البيئة التربوية الإيمانية مهمة في تربية المرء على رقة القلب واستشعار الخشوع واعتياض العين على البكاء، فلم يكن الصالحون يصلون إلى هذه الدرجة العالية من البكاء من خشية الله لولا أن هناك بيئه إيمانية تربوا عليها وفيها أعادتهم على ذلك وتلك البيئة لها أكبر الأثر في التشجيع على الأعمال الصالحة والتربوي عليها، والمربيون الذين يهملون تهيئة تلك البيئة أو يتناسون أثراها هم مخطئون ولا شك،

يروي ابن الجوزي أن عمر بن عبد العزيز بكى ذات ليلة، فبكت فاطمة زوجته، فبكى أهل الدار لا يدرى أولئك ما

أبكى هؤلاء فلما تجلت عنهم العبرة سأله ما أبكاك؟ فقال: ذكرت منصرف القوم بين يدي الله فريق في الجنة وفريق في السعير، فما زالوا يبكون!.

-2- أثر القدوة مهم جداً في التربية على تلك العبادة الصالحة فقد كان البكاؤون السابقون يجدون القدوة الصالحة في ذلك من معلميهم ومربيهم فكانوا يتشبهون بهم إلى أن يصير العمل الصالح عندهم أساساً وأصلاً، أما أن يبح صوت خطيب أو معلم يعظ الناس في البكاء والناس لم يروا عليه أبداً أثراً للبكاء فلا أثر لتصحه أبداً.

-3- يجب ألا يكون بكاء المرأة على شيء من الدنيا فات أو صاحب فقد أو مصيبة حدثت بذلك بكاء الدنيا وإنما مقصودنا هو بكاء الخشية من الله، وهو أن يكون باعث البكاء دائماً هو خشية الله سبحانه وتعظيمه والتقصير في حقه تعالى وكثرة ذنب العبد وخوف العاقبة، وقد كانت أسباب بكاء الصالحين السابقين تدور حول: تذكر ذنوبهم وسيئاتهم وأثار ذلك، أو التفكير في تقصيرهم تجاه ربهم سبحانه وما وراء ذلك، أو الخوف من عذاب الله سبحانه وسوء الخاتمة أو الخوف من لا تقبل أعمالهم الصالحة، أو الخوف من الموت قبل الاستعداد له أو الشوق إلى الله سبحانه ومحبته، أو خوف الفتنه ورجاء الثبات على دينهم أو رجاء قبول الدعاء.

فلقد غاب عن حياة الكثيرين مما سمتُ جليل، وسمة ريانة، أنسَتنا الدنيا ومشاغلها، ولَهُونَا بها في الليل والنهار، هذه الخصلة الكريمة الشريفة، وهي صفة قد امتدحَ اللهُ ورسوله صلى الله عليه وسلم فاعليها.

نعم، لقد فقدنا البكاء من خشية الله، وغاب عنا هذا السمت البكائي وندر، حتى صار يقال: إنَّ فلاناً يبكي، وحتى صار من المستغرب أن تجدَ من يخشع في الموعظة ، وحتى صار صفتُ الملتزمين في الصلاة أشَحَ بالدمع من الصخر، إنَّ هذا كله مؤذنٌ بخلل خطير، ومنذر بشِّرٍ وبييل. لا نريد المُخادعة، ولا الضحك على النفس، فربما التمسَّ الإنسان لنفسه ألف عذر، وربما قال ما قال إياس لأبيه: إنما هي رقة في القلوب، يريد أن المسألة طبائع، وهناك من في قلبه رقة، وهناك من في قلبه قسوة، وكلُّ هذه مبررات واهية، وحجج ساقطة، واجعل نصب عينيكَ أبداً قولَ من قال: إذا لم تبك من خشية الله، فابك على نفسك؛ لأنك لمْ تبك.

كثيرٌ منَّا من يقرأ القرآن؛ ولكنَّ لا تدمع عيونه من خشية الله، وكثيرٌ منَّا من يستمع إلى أحاديث تذكرة بالآخرة، وتُخوِّفه بالنار، وتحبِّه في الجنة؛ ولكن قلبه لا يخشع، ولا يخضع، ولا يلين، فقد عَمِّت البلوى، وانتشرت المعاشي والآثام، فلم يبقَ لهذا القلب خوفٌ من الله، ولم يبقَ لهذه العين خشية حتى تدمع شوقاً إلى الله.

أيها الإخوة

ليسَّألَ الوَاحِدُ مَنَّا نفْسَهُ: بِاللهِ عَلَيْكَ، مَتَى آخرَ مَرَّةَ دَمَعْتَ عَيْنَاكَ خَشِيَّةً وَخُوفًا مِّنَ اللهِ؟ ولعلَّ جوابَ كثيرٍ منَّا قد يكون: من سنوات عديدة، أو أنها لم تدمع أصلًاً خشية لله، فلماذا هذه القسوة في القلوب؟ ولماذا هذا التَّحَجُّرُ في العيون؟ ما هو إلا بسببُ الابتعاد عن منهج الله، والرُّكُونُ إلى هذه الدُّنيا الفانية؟ فقد نقرأ القرآن ولا نتأثر، ولا نبكي، ونسمع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ولا تَقْسِعُهُ الجلوُدُ، ونسمع الموعظ والتَّحْوِيفَ بالله وبالآخرة، ولا تُحرِّكُ فينا ساكناً.

وحسيناً هذا التَّهْدِيدُ الإلهيُّ المخيفُ: {فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَّةِ قَلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللهِ أَوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} الزمر: 22. قال مالك بن دينار رحمه الله: ما ضرب الله عبداً بعقوبة أعظم من قسوة القلب، وما غضب الله عز وجل على قوم إلا نزع منهم الرحمة.

أيها المؤمنون

إِنَّ الْبَكَاءَ مِنْ خُشْيَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - مَقَامٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ مَقَامُ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، إِنَّهُ مَقَامُ
الْخُشُوعِ، وَإِرَاقةِ الدَّمْوعِ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ، إِنَّهُ التَّعْبِيرُ عَنْ حَزْنِ الْقَلْبِ، وَانْكِسَارِ الْفَؤَادِ.

عِبَادُ اللَّهِ

يَقُولُ اللَّهُ - سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى - عَنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَدْمِعُ عَيْنُهُمْ مِنْ خُشْيَةِ اللَّهِ، وَتَرْقُ قَلْوَيْهِمْ لِذِكْرِ
اللَّهِ؛ يَقُولُ سَبَحَانَهُ : { وَإِذَا سَمَعُوا مَا أُنْزَلَ إِلَيَّ الرَّسُولُ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفَيَّضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا
مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَمْنَا فَأَكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ } [الْمَائِدَةَ: 38]، وَيَقُولُ عَنْهُمْ سَبَحَانَهُ أَيْضًا : { إِذَا
تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَّوْا سَجَدًا وَيَكِيَّا } [مَرِيمٍ: 85]، وَيَقُولُ كَذَلِكَ : { وَيَخِرُّونَ لِلْلَّادُقَانِ
يُبَكُّونَ وَيَزِيدُهُمْ خَشْوَعًا } [الْإِسْرَاءَ: 109].

إِنَّ الْبَكَاءَ مِنْ خُشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَعْظَمِ الْأَمْرَوْنَ الَّتِي يَحْبَبُهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَعْنَ أَبِي أَمَامَةَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (لَيْسَ شَيْءًا أَحَبُّ إِلَيَّ اللَّهُ مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثْرَيْنِ، قَطْرَةٌ مِنْ دَمْوعِ
فِي خُشْيَةِ اللَّهِ، وَقَطْرَةٌ مِنْ ثَهْرَاقٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...) ، الْحَدِيثُ : رواه التَّرمذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلبَانِيُّ.
وَانْظُرُوهُ إِلَى الْفَضْلِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَعَدَهُ اللَّهُ سَبَحَانَهُ لِصَاحِبِ الْعَيْنِ الَّتِي تَدْمِعُ خُشْيَةً وَخَوْفًا مِنَ
اللَّهِ :

مَا رَقَّ قَلْبُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا كَانَ صَاحِبَهُ سَابِقًا إِلَى الْخَيْرَاتِ، مُشَمَّرًا فِي الطَّاعَاتِ.

مَا رَقَّ قَلْبُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا كَانَ حَرِيصًا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَمَحْبَبِهِ.

مَا رَقَّ قَلْبُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا وَجَدَتْ صَاحِبَهُ مُطْمَئِنًا بِذِكْرِ اللَّهِ.

وَمَا رَقَّ قَلْبُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا وَجَدَتْهُ أَبْعَدَ مَا يَكُونُ عَنْ مَعَاصِيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فَالْقَلْبُ الرَّقِيقُ قَلْبٌ ذَلِيلٌ أَمَامُ عَظَمَةِ اللَّهِ، وَيُطْسَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

مَا انتَزَعَهُ دَاعِيُ الشَّيْطَانِ إِلَّا وَانْكَسَرَ؛ خَوْفًا وَخُشْيَةً لِلرَّحْمَنِ سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَلَا جَاءَهُ دَاعِيُ الغَيِّ وَالْهُوَى إِلَّا ارْتَدَتْ فَرَائِصَهُ مِنْ خُشْيَةِ الْمَلِكِ سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى.

مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْقَسْوَةِ لِلْقَلْبِ، وَقَلْةُ الْبَكَاءَ مِنْ خُشْيَةِ اللَّهِ : الرُّكُونُ إِلَى الدُّنْيَا، وَالْغُرُورُ
بِأَهْلِهَا، وَكُثْرَةُ الْاِشْتِغَالِ بِفَضْلِهِمْ أَحَادِيثُهَا.

وَكَذَا مِنَ الْأَسْبَابِ كَثْرَةُ الدُّنُوبِ، فَوَاللَّهِ مَا تَحْجَرَتِ الْعَيْنُونَ، وَقَسَتِ الْقُلُوبُ، إِلَّا بِتَرَاكُمِ
الْمَعَاصِي وَالآثَامِ، فَأَصْبَحَ الْقَلْبُ لَا يَجِدُ مَسَاغًا لِآيَاتِ تَتَلَّى، وَأَحَادِيثِ تَذَكَّرُ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سُودَاءٌ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ
صَقْلُ قَلْبِهِ، وَإِنْ عَادَ زَادَتْ حَتَّى تَلْعُوْ قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الرَّأْيُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ : { كَلَّا بَلْ رَأَنَ
عَلَى قَلْوَيْهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [الْمَطْفَفِينَ: 41]؛ رواهُ أَحْمَدُ، وَالْتَّرْمذِيُّ، وَابْنُ مَاجَةَ، وَحَسَنَهُ
الْأَلبَانِيُّ.

فَقَدْ أَظْلَمَ هَذَا الْقَلْبُ بِشُقُومِ الْمَعْصِيَةِ، فَكَيْفَ لَقِبَ عَلَاهُ الرَّأْيُ أَنْ يَبْكِيَ مِنْ خُشْيَةِ اللَّهِ؟ وَكَيْفَ
لَقِبَ سَوْدَاتِهِ الْمَعَاصِي وَالآثَامِ أَنْ يَتَفَكَّرَ فِي خَلْقِ اللَّهِ؟

وَمِنْ أَسْبَابِ قَسْوَةِ الْقُلُوبِ : الْجُلُوسُ مَعَ الْفُسَاقِ، وَمَعَاشَةُ مَنْ لَا خَيْرٌ فِي مَعَاشَرَتِهِ؛ وَلَذِكَّ ما

أَلْفُ الْإِنْسَانِ صَحْبَةٌ لَا خَيْرٌ فِي صَحْبَتِهِ إِلَّا قَسَا قَلْبُهُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

إِنَّ الْبَكَاءَ مِنْ خُشْيَةِ اللَّهِ نِعْمَةً، مَا وُجِدَتْ عَلَى الْأَرْضِ أَجَلٌ وَأَعَظَمُ مِنْهَا، وَمَا مِنْ قَلْبٍ يُحِرِّمُ
هَذِهِ النِّعْمَةِ إِلَّا كَانَ صَاحِبَهُ مَوْعِدًا بِعَذَابِ اللَّهِ؛ قَالَ تَعَالَى : { فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قَلْوَيْهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ

{ الزمر: 22؛ لذلك ما من مؤمنٍ صادقٍ في إيمانه؛ إلاًّ وهو يَتَفَكَّرُ: كيف أرق قلبي لِذِكْرِ اللهِ ومحبته؟

للبكاءُ أسبابٌ وسُبُّلٌ

أولها: الإيمان بالله ، فما رقَّ قلبٌ بسببِ أعظمٍ منَ الإيمان بالله ، ولا عَرَفَ عبدٌ ربه بأسمائه وصفاته إلاًّ رقَّ قلبه ودمعت عينه، فلا تأتيه الآية منَ الله والحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاًّ قال بلسان حاله ومقاله: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا، وإليك المصير.

ثانيها: النَّظَرُ والتَّدَبَّرُ في كتاب الله وآياته؛ قال تعالى : {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا} [محمد: 42] ، فالمؤمن المتَّدَبِّرُ لآيات الله هو أرق الناس قلباً، وأنقاهم نفساً، وما قرأ العبد هذه الآيات مُتَفَكِّراً مُتَدَبِّراً إلاًّ صارت العين تدمع، والقلب يخشع، والنَّفْسُ تخضع، وإذا بأرض هذا القلب تنقلب خصبة غضة طرية، تنبت في النفس السكينة، والخُضُوع لله رب العالمين : {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثَ كَتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشُّرٍ مِنْهُ جَلُودُ الَّذِينَ يَخْشُونَ رِبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جَلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يَضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادِ} [الزمر: 23]

إنَّ هذا القرآن موعظة رب العالمين، وكلام الله الأولين والآخرين، مما قرأه عبد يرجو الهدى إلاًّ وتيسَّرت له أسبابها، واتضحت له طرائقها، هذا القرآن الذي حول قلوب الصحابة من الظلمة إلى الإشراق، ومن الغلظة إلى الرقة،

فها هو عمر بن الخطاب يسمع آيات من سورة طه، فتملاً قلبه القاسي رقة وخشية، وهذا هو الطفيلي بن عمرو الدوسي يسمع آيات من الذكر الحكيم، فيسارع إلى هذا الدين مؤمناً مُستَجِيحاً لأوامره، داعياً قومه إليه، وهذا أَسِيدُ بن الحُضَير جاء ليمنع مصعباً من الدعوة في المدينة، فيشير عليه مصعب بسماع بعض الآيات، مما هي إلا آيات تتلى، وإذا بها تسري إلى القلب سريان النور في الظلماء، حتى يسلم أَسِيد، ويتحوّل من محارب للإسلام إلى داع إليه؛ لذلك ما أدمَنَ عبد تلاوة القرآن إلاًّ رقَّ قلبه من خشية الله.

ثالثها : تذكر الآخرة وأهوالها، والجنة ونعمتها، والنار وجحيمها، أن يتذكر العبد أنه إلى الله صائر، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، فإذا تذكر الإنسان أن الحياة زائلة، وأن الممتع فان، فإنه حينئذ يحتقر الدنيا، ويقبل على ربها، عندئذ يرق قلبه، وتدمع عينه، وتخشع جوارحه. إن لرقة القلب علامات، فمن علامات رقة القلب إلاًّ يفتر صاحبه عن ذكر ربه، فإن ذكر الله تطمئن القلوب: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطَمِّنَ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطَمِّنُ الْقُلُوبُ} [الرعد: 82] ، وفي القلب فاقه لا يسدّها إلا ذكر الله، فيكون صاحبه غنياً بلا مال، عزيزاً بلا عشيرة، مهيناً بلا سلطان، قال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد، أشكو قسوة قلبي، قال: أذبه بذِكْر الله.

ومن علامات رقة القلب أن يكون صاحبه إذا دخل في الصلاة، ذهب عنه همه وغمه بالدنيا، ووجد فيها راحتة ونعمته وقرة عينه وسرور قلبه، وسبحان الله، نحن الواحد منا إذا دخل في الصلاة تذكر أمور دُنياه، وما هذا إلا لقصوة في القلب.

ومن علامات رقة القلب أن صاحبه إذا فاته ورده أو طاعة من الطاعات، وجد لذلك ألمًا أعظم

من تَأْلِمُ الْحَرِيصُ بِفَوَاتِ مَا لَهُ وَدُنْيَاهُ.

ومنها: أَنَّ صَاحِبَهُ يَخْلُو بِرِبِّهِ، فَيَتَضَرُّعُ إِلَيْهِ وَيَدْعُوهُ، وَيَتَلَذَّذُ بَيْنَ يَدِيهِ سَبْحَانَهُ قَالَ ابْنُ مُسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "ا طْلُبْ قَلْبَكَ فِي مَوَاطِنِ ثَلَاثَةٍ: عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، وَعِنْدَ مَجَالِسِ الذِّكْرِ، وَفِي أَوْقَاتِ الْخُلُوَّ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ فَسَلِّمْ اللَّهُ قَلْبَكَ؛ فَإِنَّهُ لَا قَلْبَ لَكَ".

ولعلنا نسأل أو نتساءل: من أين تأتي رقة القلوب وانكسارها وإنابتها إلى ربها؟ ومن الذي يتفضّل عليها ياخذاتها؟ إنه الله سبحانه وتعالى فالقلوب بين إصبعين من أصابعه، يقلّبها كيف يشاء؛ كما قال ﴿إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلُّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصْبَابِ الرَّحْمَنِ؛ كَقْلُبٍ وَاحِدٍ، يَصْرُفُهُ حِيثُ يَشَاء﴾؛ رواه مسلم.

لقد ضرب أسلافنا المثل الأعلى في خُشُوعِهم وإنابتهم لربِّهم عز وجل فأورثُهم الله نور الإيمان في قلوبِهم، فصارتْ قلوبِهم لَيْنةً مِنْ ذِكْرِهِ تَعَالَى فَمَا تَكَادُ تَخْلُو بِاللهِ إِلَّا فَاضَتْ أَعْيُنُهُمْ مِنَ الدَّمْعِ مِنْ كَمَالِ خَشْيَتِهِ، وَكَانَ أَوْلَاهُمْ حَبِيبَنَا وَرَسُولَنَا ﷺ فَقَدْ كَانَ أَخْشَى النَّاسُ لِلَّهِ، وَأَرْقَهُمْ قَلْبًا، فَقَدْ ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ ابْنِ مُسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ: (اقْرَأْ عَلَيِّ الْقُرْآنَ)، فَقَالَ: أَقْرَأْ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ، وَعَلَيْكَ أَنْزَلْ؟! قَالَ: (إِنِّي أَحَبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي)، فَقَرَأَ مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ حَتَّى بَلَغَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: {فَكَيْفَ إِذَا جَئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجَئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} النِّسَاءُ: 14، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (حَسِبَكَ)، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَدْرَفَانِ.

وقد ثبتَ عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَنَّهُ كَانَ إِذَا صَلَّى سُمِعَ لصِدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمَرْجَلِ مِنَ الْبَكَاءِ، أَيِّ: كَصُوتِ الْقَدْرِ إِذَا اشْتَدَّ غَلِيانُهِ" رواه أبو داود، وأحمد، والنَّسَائِي.

هذا حال النبي ﷺ في بكائه من خشية الله، أخذَهَا الصَّحَابَةُ وَالْتَّابِعُونَ - رضوان الله عليهم - فقد روى الحاكم، والبزار بسنَدِ حسن، عن زيد بن أرقم، قال: كنا مع أبي بكر رضي الله عنه بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَسْقَى، فقدم له قدح من عسل مشوب بماء، فلما قربه إلى فيه بكى ويكي، حتى أبكى من حوله، فما استطاعوا أن يسألوه عن سبب بكائه، فسكتوا وما سُكِّتَ، ثم رفع القدح إلى فيه مَرَّةً أخرى، فلما قربه من فيه بكى ويكي، حتى أبكى من حوله، ثم سكتوا فسكت بعد ذلك، ويدأ يمسح الدموع من عينيه رضي الله عنه فقالوا: ما أبكاك يا خليفة رسول الله؟ قال: كنت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكان ليس معنا فيه أحد، وهو يقول: (إِلَيْكَ عَنِي، إِلَيْكَ عَنِي)، فقلت: يا رسول الله، من تُخاطب، وليس هنا أحد؟ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (هَذِهِ الدُّنْيَا تَمَثَّلُ لِي)، فقلت لها: إِلَيْكَ عَنِي، فقالت: إن نجوت مني فلن ينجو مني من بعدك)، فخشيت من هذا.

وَيَكَتْ فاطمة بنت عبد الملك رحمها الله ذات مَرَّةً، فسُئِلَتْ، فَقَالَتْ: رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ ذات ليلة قائمًا يُصلِّي، فَأَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ: يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمُبَثُوثُ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ [القارعة: 4، 5]، فبكى ثم قال: واسوء صباحاه، فسقط على الأرض يجعل يبكي، حتى ظنت أن نفسه ستخرج، ثم هدا فظننت أنه قد قضى، ثم أفاق إفادة فنادي: ياسوء صباحاه، ثم قفز يجعل يجول في الدار، ويقول: ويلي من يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش، فلم ينزل كذلك حتى طلع الفجر، ثم سقط كأنه

مِيَّتْ، حَتَّى أَتَاهُ الْإِذْنُ لِلصَّلَاةِ، فَوَاللَّهِ مَا ذَكَرْتُ لِي لِتَهُ تِلْكُ إِلَّا غَلَبَتِي عَيْنَايِ، فَلَمْ أَمْلِكْ رَدْ عَبْرَتِي.

وقام محمد بن المنكدر ذات ليلة بكى، ثم اجتمع عليه أهله ليستعلموا عن سبب بكائه، فاستعجم لسانه، فدعوا أبا حازم، فلما دخل أبو حازم هداً محمد بن المنكدر بعض الشيء، فسأله عن سبب بكائه، فقال: تلوت قول الله جل وعلا : {وَيَدًا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} الزمر: 74، فبكى أبو حازم، وعاد محمد بن المنكدر إلى البكاء، فقالوا: أتينا بك لتخفف عنه فزدته بكاءً، ولكنه قول الله : {وَيَدًا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} الزمر: 74، وكان الريبع بن خثيم يبكي بكاءً شديداً، فلما رأت أمها ما يلقاه ولدها من البكاء والسرير نادته، فقالت: يا بني، لعلك قتلت قتيلاً؟ فقال: نعم يا والدتي، قتلت قتيلاً، فقالت: ومن هذا القتيل يا بني، نتحمل إلى أهله فيغفوك؟ والله، لو علموا ما تلقى من البكاء والسرير لقد رحموك ، فقال الريبع: يا والدتي هي نفسي، يا والدتي هي نفسي.

عبد الله:

هذا بكاء السلف، وهذه دموع البكائين تسيل، ولسان حالهم يقول:
**نَزَفَ الْبَكَاءُ دُمُوعَ عَيْنَكَ فَاسْتَعِرَ عَيْنَانِ لَغَيْرِكَ دَمَعُهَا مَدْرَارٌ
مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَيْنَهُ تَبْكِي بِهَا أَرَأَيْتَ عَيْنَانِ لِلِّدْمَوْعِ ثَعَارُ**

نسأل الله أن تكون من خشيته بكائين ومن عذابه مرحمين وعن النار مبعدين وفي رحمه
غمرين وفي جنة داخلين . أنه ولـي ذلك والقادر عليه.
ودعواتكم لي . والحمد لله رب العالمين

كاتب المقالة : منقول
تاريخ النشر : 01/11/2010
من موقع : موقع الشيخ محمد فرج الأصفدر
رابط الموقع : www.mohammdfarag.com